المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تَعظِيمُ اللهِ تَعَالى
فِي هِدايَات القرْآن الكَريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

تعظيم الله تعالى عند مخلوقاته

اسم الباحث

د/ سماح محمد عابد المولد

د. سماح محمّد عابد المولد

تعظيم الله عند مخلوقاته

المقدمة

الحَمْد لله ذي العظَمة والجَلال، المتفرِّد بالبهاء والجمال، والعُلُوِّ والكمال، وسِعتْ رحمتُه كلَّ شيء، وعمَّت نِعمتُه كلَّ حيٍّ. وأشْهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، خَيرُ مَن عرف ربَّه وعظَّمه، فأكرَمه ربُّه ونعَّمَه، وعلىٰ آله وصحبه، ومَن تبِعه،،

أمَّا بعْد؛ فإنَّ الله ﷻ قد أَوجَد عبادَه من العَدَم، وأَمدَّهم بالنِّعَم، وتَعرَّف إليهم في كتابه، وجعل كونه شاهدًا علىٰ عظَمته. ولا يكتمل إيمانُ عبدٍ إلا بمعرفة خالقه، ومعرفة أسمائه وصِفاته، وامتلاء قلْبه بهذه المعرفة التي لا يُوهَب العبدُ أجلَّ وأعظم منها.

والقرآن الكريم حافِلٌ بالحديث عن الله ﷻ، فلا تكاد تخلُو صفحة منه من اسم من أسماء الله وصِفاته، أو فِعْل من أفعاله. بل إنَّه ما خلق الخَلْقَ إلا ليعرفوه، قال -تعالىٰ-: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، فإذَا عرفوه عبدوه، والعبوديَّةُ مبناها علىٰ الذُّلِّ الذي لا يأتي إلا من الحُبِّ والتَّعظيم في القلب.

والتماسُ هدىٰ القرآن الكريم ونوره أعظمُ أسباب سعادة المَرء، وتوفيقه للعمل الصالح، وكفِّه عن المعاصي؛ فقد جاء فيه البيانُ العظيم لعظَمة الجليل العظيم - سبحانه، بطُرُقٍ وأساليب متنوِّعة؛ إذْ هو تابعٌ لمعرفة الله وتوحيده التي فاض بها القرآنُ؛ فذكر عظَمتَه -سبحانه- في ذاته، وعظَمتَه في أفعاله، وعظَمتَه في أسمائه وصفاته، ووسائلَ ذلك وثمراتِه.

وآيات القرآن تتفاضل لهذا المعنىٰ، فالآيات التي وصف اللهُ فيها نفْسَه أعظمُ من غيرها.

قال شيخ الإسلام: «والقرآن فيه مِن ذكْر أسماء الله وصفاته وأفعاله أكثرُ ممَّا فيه مِن ذكْر الأكل والشُّرب والنِّكاح في الجَنَّة، والآياتُ المتضمِّنة لذكْر أسماء الله وصفاته أعظمُ قدْرًا من آيات المَعاد؛ فأعظمُ آيةٍ في القرآن آيةُ الكُرسيِّ المتضمِّنة لذلك»[1].

وإذَا تدبَّر العبدُ في كلامه ﷻ ازداد معرفةً به، وحُبًّا له وتعظيمًا وإجلالًا، وتجلَّتْ له عظَمة الله ﷻ فتملَّكتْ قلبَه ووِجْدانَه، وفاضت علىٰ جوارحه وأركانه، فخشع القلبُ، ودمعت العَينُ، وتأهَّبت النَّفْسُ للاستجابة لأوامر العظيم، لذا كان لِزَامًا علىٰ العبد أنْ يسعىٰ في تحصيل ذلك وتعلُّمه؛ ليُحقِّقَ تعظيمَ الله في قلْبه، مُحصِّلًا -بإذن الله- ثمرات ذلك. فالتَّعظيم بابٌ جليل يَلِجُ

(١) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٦١).

منه العبدُ إلىٰ سيِّده، ومِن هنا كان هذا المؤتمر المبارك، ومن ثمّ هذا البحث: (تعظيم الله تعالىٰ عند مخلوقاته) لاستجلاء هدايات القرآن الكريم في تعظيم الخلائق لربها، ومحاولة تربية النفس ومن ثمّ النشء علىٰ ذلك؛ فإن صح في القلب التعظيم، صح العمل. وسعي العبد للسير في منظومة الكون المُعظم لربه، المسبح بقدسه، هي الغاية من هذا البحث، والله أسأل التوفيق والسداد والإخلاص في القول والعمل.

خطة البحث:

المبحث الأوَّل: تعظيم الله ﷻ عند خَلْقه (من البشر)، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأوَّل: تعظيم الرَّبِّ ﷻ عند الأنبياء.

المطلب الثَّاني: تعظيم الرَّبِّ ﷻ عند المؤمنين.

المطلب الثَّالث: تعظيم الرَّبِّ ﷻ عند المشركين

المبحث الثَّاني: تعظيم الله ﷻ عند بقية خَلْقه، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأوَّل: تعظيم الملائكة.

المطلب الثَّاني: تعظيم الجِنِّ.

المطلب الثَّالث: تعظيم الجمادات.

المبحث الأوَّل: تعظيم الله -عزّ وجلّ- عند خلْقه من البشر

المخلوقات في تعظيمهم لربِّهم مراتب، ففي حين أنَّ من العباد من أنكر خالقه ومربِّيه ومدبِّر أمره، منهم من أَجَلَّه وعرف قدْره، والأنبياء والرسل أعْرف الخَلْق بربِّهم؛ فهُم من أشدِّ الخَلْق تعظيمًا. وكذا ملائكةُ الرَّحمن هم أيضًا من أشدِّ الخَلْق تعظيمًا، كيف لا، وهم في ملكوته الأعلىٰ، يَلْهَجُون بذكْره ويتلقَّوْن أمرَه؟!

وسائر الخَلْق في تعظيمهم مختلفون؛ فالمؤمنون معظمون لربِّهم، امتلأت قلوبهم بمعرفته، وهم مشفقون من خشيته. وليس معرفة الرَّبّ وتعظيمه دَيْدَنَ الإنْس فقط، بل من الجِنِّ أيضًا من عظَّم ربَّه ومولاه، وحتَّىٰ من الجمادات، فهذه السَّماوات يتفطَّرن مِن فوقهن، وهذه الجبال تَنْدَكُّ من خشيته. فسبحانه مِن ربٍّ عظيمٍ شأنُه!

المطلب الأول: تعظيم الربّ ﷻ عند الأنبياء

في قصص الأنبياء التي قصَّها علينا القرآن الكريمُ تعظيمٌ جليٌّ للرَّبِّ جلَّ شأنه، ونبيِّنُا محمد سيد المعظمين لربِّه، ولولا أنَّ لذلك محورًا خاصًّا لأطلتُ فيه الحديث، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

والمتتبع لآيات القرآن الكريم ولسيرته العطرة يجد من ذلك الشيء الكثير، فأفعاله وأقواله مشاعل نور في التعظيم، فلسانه لا يفتر عن ذكر ربه بألفاظ التعظيم والثناء لله، وها هو يقوم الليل حتىٰ تفطرت قدماه، ويدخل مكة يوم الفتح مُطَأْطِئًا رأسه حتىٰ تكادَ ذقنُه تلتصق بعنق راحلته، خضوعًا لله جل وعلا. ولما جاءه ذلك الحبر اليهودي يخبر عمَّا سيقع يوم القيامة من مظاهر عظمته وجلاله جل شأنه، ضحك عليه الصلاة والسلام تصديقًا لقوله.

عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلاَئِقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر] متفق عليه[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

ولا شك أن عظمة الله عزوجل أعظم بكثير مما ذكر ذلك الحبر، وإنما أخبرنا جل وعلا من ذلك بما تحتمله عقولنا. ولم يقتصر تعظيم الأنبياء لربهم علىٰ أنفسهم؛ بل كانوا يحثون أقوامهم علىٰ تعظيم الله وتوقيره وإجلاله، فهذا نوح عليه السلام يوبخ قومه قائلًا: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وهذا إبراهيم عليه السلام يستنكر علىٰ أبيه وقومه عبادة الأصنام وهي حجرٌ لا يَضرُّ ولا يَنفع، وهذا سليمان عليه السلام يتعجَّب من تذلُّل قوم سبأ وسجودِهم لمخلوق كَوْنيٍّ دون الخالق. وهذا نبيُّ الله عيسىٰ يستعظم علىٰ قومه اتخاذه إلهًا من دون الله.

ولا يزال الحديث عن الأنبياء عليهم السلام ومشاهدٍ أخرىٰ من التَّعظيم للرَّبِّ، فهذا بيانٌ لشأن موسىٰ عليه السلام مع ربِّه حين ذهب للقائه، فكلَّمه ربُّه وأنزل عليه كُتبه، وفي أحداثها يتبيَن كيفيَّةُ تعظيمه عليه السلام لمولاه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

۞ المعنىٰ الإجماليُّ للآية:

لما جاء موسىٰ عليه السلام لموعده مع المِلك - جلَّ شأنه - وخاطبه ربُّه، وتلذَّذ موسىٰ بمناجاة العظيم الجليل، طلب موسىٰ من ربِّه رؤيتَه؛ شوقًا إليه، وظنًا منه أنَّه يمكنه ذلك، فأخبره ربُّه - جلَّ شأنه - أنه لن يستطيع في هذه الحالة وبهذا الضعف وفي هذه الحياة رؤيتَه، ولن يُطيق ذلك؛ فإنَّ الجبال الشِّداد الصِّلاب تَعجَز عن ذلك، وأظهَر له من شأن الجبل ما جعل موسىٰ عليه السلام يمتلئ قلبُه تعظيمًا لربِّه، فنطق بهذا التَّعظيم حالًا ومقالًا لـمَّا أيقن وأدرك عَجْزَ نفْسه وضعفَه البشريَّ عن ذلك.

۞ هدايات الآية:

١- عجز الخلق عن رؤية الحق ﷻ في الدنيا:

لما طلب موسىٰ عليه السلام من ربِّه رؤيتَه، استدرك عليه قائلًا: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾، و«الاستدراك المستفاد من (لكن) لرفْعِ توهُّم المخاطَبِ الاقتصارَ علىٰ نفي الرؤية بدون تعليل ولا إقناع، أو أنْ يتوهَّم أنَّ هذا المنع لغضبٍ علىٰ السائل»[1]. ولكن لعجزهم عن ذلك في دار الدنيا.

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٩٢).

٢- اختيار الجبل دون غيره:

كان موسىٰ في ذلك اللقاء وفي تلك اللحظة قريبًا من الجبل، وهو من أعظم المخلوقات الكونيَّة، فإن كان أعظم المخلوقات تضمحلُّ قوَّته عندما يَتوجَّه له شيءٌ من الجلال الإلهيِّ، فكيف بأضعفها؟! لا ريب أنه لن يحتمل من ذلك مثقالَ ذَرَّة. «فعادةً ما تُذكَر الجبال في القرآن في موقع التَّهويل والتَّعظيم؛ فهو أعظم ويحتاج للزَّعزعة والاقتلاع»[(١)]. و«هكذا يرىٰ موسىٰ بعينيه الشَّاهدَ الذي يكشف له وجه الاستحالة في رؤية ربِّه.. إنَّ الجبل -في ضخامة كَوْنه، وشدَّة أسره- لم يتحمَّل لمحةً من لمحات تجلِّي الذَّات الإلهيَّة له. لقد استشعر هذا الحجرُ الأصمُّ جلالَ الله وعظَمته، فتهاوىٰ، وتفتَّت وصار حطامًا.. فكيف بالإنسان وضآلة جسمه، وما فيه من مشاعر وأحاسيس؟ أيحتمل شيئًا من هذا الجلال وتلك الخَشية التي تصدَّع لها الجبل وتشقَّق ثُمَّ هَوَىٰ؟ لقد صُعق موسىٰ ممَّا رأىٰ من الجبل، ومن تصدُّعه وتشقُّقه وتهاويه. فكيف لو كان ما نزل بالجبل نزل به؟»[(٢)].

٣- دلالة لفظ التَّجلِّي:

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾: «أي: ظهر له علىٰ الوجه اللَّائق بجنابه تعالىٰ، بعْد جعْله مُدرِكًا»[(٣)]. «وفي صيغة التَّجلِّي ما ليس في صيغة الجلاء، والانجلاءُ من معنىٰ التدريج والكثرة النوعيَّة أو الشخصيَّة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ١-٢]. فالليلُ يغشىٰ النهارَ ويستره، ثم يتجلَّىٰ النهارُ ويظهر بالتدريج»[(٤)]. وكأنه لفظ لا يكون إلا لما عَظُم.

٤- كيفية تعظيم موسىٰ لربِّه:

١- حذف المفعول:

جاء طلب موسىٰ عليه السلام علىٰ حذف المفعول، في قوله: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ المراد أرني ذاتَك، فحذف لقصد الاختصار، «ويحتمل أن يكون هابَ المواجهةَ بذلك ثم بَرَاهُ الشَّوقُ، ويجوز أنْ يكون أخَّر ليأتي به مع الأصرح؛ لئلَّا يتكرَّر هذا المطلوب العظيم علىٰ المواجَهة إجلالًا»[(٥)].

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني (٦٢).
(٢) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٤٧٧).
(٣) روح المعاني (٥/ ٤٤).
(٤) تفسير المنار (٩/ ١٠٨).
(٥) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٦٣).

ثمَّ إنه لمَّا شاهد ما شاهد من تأثر الجبل، وتَدَكْدُكِه لما تجلَّىٰ له ربُّه، استشعر عظَمة الموقف ورهبته، فكان حالُه الموصوف ناطقًا بذلك.

٢- الصَّعْق:

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي: غُشي عليه ممَّا رآه، وحُقَّ له.

٣- التنزيه فور الإفاقة:

التَّسبيح هو الشُّعور المتدفِّق في القلب عند رؤية دلائل عظَمته جلَّ شأنه، لذا كان أوَّلُ لَهَجِ موسىٰ عند الإفاقة به، فلمَّا أفاق موسىٰ من صَعْقته، وما أصابه، قال تعظيمًا لما شاهده: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهًا لك من أن أسألك شيئًا بغير إذْنٍ منك، تُبْتُ إليك من الجراءة والإقدام علىٰ السُّؤال بغير إذن[١].

٤- المسارَعة للتَّوبة:

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ مـمَّا سألتُ؛ فلقد أدرك موسىٰ أنَّ ما طلبه كان أمرًا فوق المستحيل.. ففزِع إلىٰ الله، تائبًا من تلك الجرأة التي دعتْه إلىٰ هذا الطَّلب[٢].

٥- إعلان التصديق:

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مبادِرٌ غايةَ المبادرة إلىٰ الإيمان بكلِّ ما أخبرتَ به، كلِّ ما تضمنَّتْه هذه الآيات، فتعبيرُه بالإيمان في غاية المناسبة لعدم الرؤية؛ لأنَّ شرط الإيمان أن يكون بالغيب[٣].

فمشاهَدةُ عظَمته وجلاله أوصلتْه إلىٰ عين اليقين بربِّه جلَّ شأنه، فأعلن التَّصديق بما لا يُدركه. ثم خُتم الموقف بتسْلية من الرَّبّ -جلَّ شأنه- لكَليمه عليه السلام باصطفائه له، وتشريفه بكلامه، فإنَّه «ينبغي لمن طَمَحَتْ نفسُه لما لا قدرة عليه، أو غيرِ ممكنٍ في حقِّه، وحزِنت لعدم حصوله، أنْ يُسلِّيَها بما أنعم اللهُ به عليه من الخير الإلهيِّ الذي لم يحصل لغيره»[٤].

---

(١) تفسير أبي السعود (٣/ ٢٧٠).
(٢) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٤٧٧).
(٣) نظم الدرر (٣/ ١٠٩).
(٤) المواهب الرَّبّانية (٤٦).

٦ـ أسرار اختيار اسم (الرَّبِّ):

جاء اسم (الرَّبِّ) هنا لـمَّا طلب موسىٰ من ربِّه رؤيته، ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ وفي طلبه باسم (الرَّبِّ) مَلْمَحٌ من التَّعظيم؛ إذْ «كلَّمه بصفة الرُّبُوبيَّة النَّاظر إلىٰ العطف واللُّطف. و(قال) مُسقِطًا الأداةَ كعادة أهل القُرْب: (ربِّ أرني)، (أنظر). وأشار إلىٰ عظَمته سبحانه وعُلُوِّ شأنه عُلُوَّ العظَمة لا المسافة، بالتَّعْدية بحرف النهاية بعد أنْ أشار بحذف أداة النِّداء إلىٰ غاية القُرب بالإحسان - فقال: (إليك) فأراك»[1].

المطلب الثاني: تعظيم الربِّ ﷻ عند المؤمنين

عباد الله المؤمنين الذين امتلأت قلوبهم بمعرفته، هم أيضًا في المراتب العالية من التَّعظيم، وقد حال ذلك بينهم وبين مخالفة الأمر وارتكاب النَّهي. ألسنتُهم تَنطق بتسبيحه، وجوارحُهم تُسارع إلىٰ مَحابِّه، حتَّىٰ إنَّ صورتهم الحيَّة في القرآن تُبرز تعظيمهم وخوفهم منه سبحانه، حتَّىٰ وهم علىٰ فُرُشهم يتقلَّبون: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة: ١٦]. وكم من آيات ذَكرت أحوالهم وأظهرتِ الثَّناء عليهم في تعظيمهم لربِّهم جلَّ شأنه.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧].

فوصفت الآيةُ عبادَ الله المؤمنين بالخَشْية والخوف من عذاب ربِّهم، إنْ هم عَصَوْا أمره، أو قصَّروا في حقِّه، فالخوف والإشفاق متولِّدان من استشعار العبدِ عِظَمَ حقِّ ربِّه عليه مع تقصيره، واستصغاره لطاعاته، فهو علىٰ وَجَلٍ أنْ يلقىٰ اللهَ وهو مقصِّر في حقِّه، ولم يؤدِّ حقَّ إفضاله عليه، وخشيتهم دائمة لا تَبرَح قلوبهم، فحملتْهم علىٰ دوام طاعته. واستتبع ذكرُ خوفهم ووَجَلِهم ذكرَ صفات أخرىٰ تحقَّقتْ فيهم، كالإيمان بالله وبآياته.

وفي زمنٍ غابر ظهر فِتْيَةٌ شُبَّان بين قوم ضُلَّال، يدعون سيِّدَهم وقومهم إلىٰ الإيمان بالله وحْده، فكذَّبوهم وعادوهم، وهدَّدهم الملكُ بالطَّرد أو القتل، فما كان منهم إلا الهربُ والفرار بدينهم إلىٰ الله، فأنزل عليهم الرَّبُّ لُطْفَه، وحلَّت بهم عنايتُه، حتَّىٰ كان ذكْرهم وذكْر ثباتهم رمزًا لكلِّ مؤمن صابر إلىٰ يوم الدِّين.

---

(١) نظم الدرر (٣/ ١٠٨).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف: ١٤].

۞ المعنىٰ الإجماليُّ للآية:

قام هؤلاء الفِتْية بالدَّعوة إلىٰ توحيد الله، والإعلان أمام الملك أو الملأ بربوبيَّة ربِّ العالمين ربِّ السَّماوات والأرض لهم جميعًا، فكلُّ ما دُون السَّماوات والأرض يدخُل تحت ربوبيَّته وهو وحْده المستحقُّ للعبادة، فإنْ توجَّهْنا لغيره بما هو حقٌّ له، فهو البهتان والكذب الظَّاهرُ البُطلانِ.

۞ هدايات الآية:

١ - الرَّبْط علىٰ القلب:

«﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ عبارة عن شدَّة عزْم وقوَّة صبر، أعطاها الله لهم حتَّىٰ قالوا بين يدي الكفَّار: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾. ولما كان الفَزَعُ وخَوَرُ النَّفْس يشبه بالتَّناسُب الانحلالَ، حسُن في شدَّة النَّفْس وقوَّة التصميم أنْ يُشبه الرَّبْطَ، ومنه يقال: فلانٌ رابِطُ الجَأْش، إذا كان لا تَفرَقُ نفْسُه عند الفزَع والحرب وغيرها»[(١)].

«ويُفهم من هذه الآية الكريمة: أنَّ من كان في طاعة ربه جَلَّوَعَلَا أنَّه تعالىٰ يقوِّي قلبه، ويثبِّته علىٰ تحمُّل الشدائد، والصبر الجميل»[(٢)]. فمن كان مع الله كان الله معه.

ومنه الرَّبْط علىٰ قلب أُمِّ موسىٰ. والرَّبْط علىٰ قلوب الصحابة يوم بدر.

ووقع فعل الرَّبْط بضمير الفخامة (ربطنا) بما لنا من العظَمة والقدرة علىٰ القلوب وتصريفها. «وتعدية فعل (ربطنا) بحرف الاستعلاء للمُبالغة في الشَّدِّ؛ لأنَّ حرف الاستعلاء مستعار لمعنىٰ التمكُّن من الفعل. و(إذ قاموا) ظرفٌ للرَّبْط، أي كان الرَّبْط في وقت قيامهم... ربط الله علىٰ قلوبهم، ولولا ذلك لما أقدَموا علىٰ مثل ذلك العمل وذلك القول»[(٣)].

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٦٥).
(٢) أضواء البيان (٣/ ٢١٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٧٢).

٢- تقديم الفعل علىٰ القول:

في تقديم قاموا علىٰ قالوا دلالةٌ علىٰ أنه يَحسُن بالعبد العزمُ علىٰ العمل وتقديمُه علىٰ القول؛ إذ هو المعتبَر، فالسَّعيُ نحو ما يُقصد هو المطلوب دون مجرَّد القول والنِّيَّة، ومنه يجِد العبدُ الإعانة والتوفيق من ربِّه.

وقولهم: ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾ نفيٌ تأبيديٌّ، أي: لا يقع منَّا هذا أبدًا؛ لأنَّا لو فعلنا ذلك لكان باطلًا[١].

٣- استدلالهم بتوحيد الرُّبُوبيَّة علىٰ توحيد الإلهيَّة:

«جمعوا بين الإقرار بتوحيد الرُّبُوبيَّة ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وتوحيد الإلهيَّة ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾، والتزامِ ذلك، وبيانِ أنَّه الحقُّ، وما سِوَاه باطل، وهذا دليل علىٰ كمال معرفتهم بربِّهم، وزيادة الهدىٰ من الله لهم»[٢].

٤- الشَّطَط من القول:

أي: الغالي في الكذب والجَوْر، وأصلُ الشَّطَط: مجاوَزة القدْر، والإفراطُ في البُطلان والغُلُوِّ[٣]. «والنَّعتُ بالمصدر للمبالغة؛ كأنَّ قولهم هو نفْس الشَّطَط. ويكثُر استعمال الشَّطَط في الجَوْر والتَّعَدِّي، ومنه قول الأعشىٰ[٤]:

أَتَنْتَهُونَ ولَنْ يَنْهَىٰ ذَوِي شَطَطٍ ... كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ والفُتُلُ

وهذه الآية الكريمة تدلُّ دلالة واضحة علىٰ أنَّ مَن أشرك مع خالق السَّموات والأرض معبودًا آخَر، فقد جاء بأمرٍ شَطَطٍ بعيد عن الحقِّ والصوابِ، في غاية الجَوْر والتَّعدِّي؛ لأنَّ الذي «يستحقُّ العبادة هو الذي يُبرز الخلائق من العدم إلىٰ الوجود؛ لأنَّ الذي لا يقْدر علىٰ خلْق غيره مخلوقٌ يحتاج إلىٰ خالق يخلُقه ويرزقه ويدبِّر شؤونه»[٥].

---

(١) يُنظر تفسير ابن كثير (٥/ ١٤١).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٤٧١).
(٣) تفسير الطبري (١٧/ ٦١٥)، وتفسير البغوي (٥/ ١٥٦).
(٤) ديوان الاعشىٰ (٤٨/ ٤).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٢١٥).

٥ـ أسرار اختيار اسم (الرَّبِّ):

«دلَّ علىٰ الإحسان باسم (الرَّبِّ) لـمَّا كان في فعْله معهم من باهر القُدرة ما لا يخفىٰ.(ربنا) الذي يستحقُّ أنْ نُفرِده بالعبادة لتفرُّده بتدبيرنا، هو ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مُوجِدهما ومدبِّرهما»[١].

المطلب الثالث: تعظيم الربِّ ﷻ عند المشركين

البشريَّة أجمع خاضعة لله، شاهدة علىٰ جلالته وعظمته، وإنْ أبىٰ بعضُهم الانقيادَ والاستسلامَ إلا أنَّ فطرَهم داعيةٌ له رغمًا عنهم.

فهاهم كفَّارُ قريش علىٰ شركهم إلا أنَّه كان في قلوبهم شيءٌ من تعظيم الله، وكانوا يتصدَّقون ويحجُّونَ ويَدْعون الله، ويعظِّمونه قال شيخ الإسلام: «والمشركون ما كانوا ينكرون عبادة الله وتعظيمه، ولكن كانوا يعبدون معه آلهةً أخرىٰ، كما أخبر الله عنهم بذلك»[٢].

وقد وورد في القرآن وفيما رُوي من قصَصِهم شواهد لذلك، أمّا عن دعائهم فقد قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ومن تعظيمهم لله علىٰ حدِّ زعمهم طوافُهم بالبيت عراةً إنْ لم يجد أحدهم ثوبًا لم يعص الله فيه. ويجد أحدهم قاتلَ أبيه في حرم الله فيدعه ولا يتعرَّض له، مع ما اشتهروا به من النَّعرات والعصبيَّةِ القبليَّة. ومن تعظيمهم أنّه لما اجتاحت السيولُ مكة، وتصدَّعتْ أركانُ البيت، وقرَّروا إعادة تجديد بنائه، واتفقوا علىٰ ألا يُدخلوا في بنائها من كسبهم إلا طيِّبًا، فلمّا قصرت بهم النفقة، استعظموا أن يكملوه بمال حرام.

۞ المعنىٰ الإجماليُّ للآية:

يقول تعالىٰ ذكره: فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة في البحر، فخافوا الغرق والهلاك فيه ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فأخلصوا لله – عند الشدة التي نزلت بهم – التوحيد، وأفردوا له الطاعة، وأذعنوا له بالعبادة، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم، ولكن بالله الذي خلقهم[٣].

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٤٥٠).
(٢) الفتاوىٰ الكبرىٰ (١/ ٣٥٢).
(٣) تفسير الطبري (٢٠/ ٦٠).

۞ هدايات الآية:

١ـ إفرادهم الله وحده بالدعاء والإقبال:

(فإذا ركبوا في الفلك) متصل بما دل عليه شرح حالهم، أي: هم علىٰ ما وصفوا به من الشرك فإذا ركبوا البحر (دعوا الله مخلصين له الدين) كائنين في صورة من أخلص دينه من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون سواه لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد إلا هو[١].

٢ـ إجابته لهم دليل وقوع الإخلاص منهم:

فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلىٰ شركهم وكفرهم. فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه[٢].

٣ـ هلا أخلصوا له في الرخاء كما أخلصوا له في الشدة؟

هذا القول انتقال إلىٰ إلزامهم بما يقتضيه دعاؤهم حين لا يشركون فيه إلها آخر مع الله، بعد إلزامهم بموجبات اعترافاتهم فإنهم يَدْعُون أصنامهم في شؤونٍ مِنْ أحوالهم ويستنصرونهم، ولكنّهم إذا أصابهم هولٌ توجَّهوا بتضرعهم إلىٰ الله[٣].

فمن تعرف إليه في الرخاء، خلَّصه حالَ الشِّدة. لكن أقول إنه مع هذه الأدلة والشواهد علىٰ ما كان في قلوب مشركي مكة من تعظيم لله وعبادته إلا أن الآيات دلَّت علىٰ أنَّ هذا التعظيمَ ما هو إلا قشورٌ خارجيّة وقلوبهم علىٰ الحقيقة قد خلَتْ منه.

قال تعالىٰ: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٤].

فما عظَّم هؤلاء المشركون الذين جعلوا لله شريكًا في العبادة حقَّ عظمته، ولا عرفوه حقَّ معرفته، فلو وَفَّوْهُ حقَّه من التعظيم والتوحيد لكان تعظيمُهم في محلِّه؛ فعبادتُهم الأصنام معه استخفافٌ بحقِّ إلهيته تعالىٰ، كيف وقد ساووا بينه وبين أحقر الموصوفين[٤].

وأن تعظيمهم هذا ليس بنافع لهم، لما صدهم عنادهم وتعاليهم عن قبول الحق وإفراد الرب، وأبؤا إلا الإشراك معه. نعوذ بالله من الخذلان.

---

(١) تفسير البيضاوي (٤/ ٣٢٣).

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٢٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٢).

(٤) يُنظر: تفسير الطبري (١٨/ ٦٨٦)، المحرر الوجيز (٥/ ١٦٥)، التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٢).

المبحث الثاني: تعظيم الله - عزّ وجلّ- عند سائر خلْقه

كما أنَّ التَّعظيم دَيْدَنُ أنبياء الله والكُمَّل من عباده المؤمنين، هو كذلك شأنُ كثير من خلقه؛ فهذه ملائكته لهم زَجَلٌ بالتَّسبيح والإجلال، يطوفون حول العرش، وها هم الجِنُّ منهم المؤمنون ومنهم الصالحون المعظِّمون، والسَّماوات السَّبع والأرضون السَّبع تسبِّح لربِّها وتعظِّمه، وإنْ من شيء إلا يسبِّح بحمده جَلَّوَعَلَا.

وكم وكم في الكون من مشهد تعظيم للرَّبِّ جلَّ شأنه؛ فالشَّمس تسجُد كلَّ يوم تحت عرشه، والحجارة تهبِط من خشيته، والجبال تتصدَّع من عظَمته، وانقاد واستسلم له كلُّ ما في السَّماوات والأرض طَوْعًا وكَرْهًا.

المطلب الأوَّل: تعظيم الملائكة:

والقرآن حافلٌ ببانٌ حال الملائكة وكثرة طاعتهم، وتنزيههم وتعظيمهم لربِّهم، وليس التَّسبيح عبادتهم فحسْب، بل السجود والخوف والخضوع والتَّعظيم، وفعلُ ما يؤمَرون به؛ فالسَّماوات لها أَطِيطٌ من كثرتهم وكثرة عبادتهم وتعظيمهم للعظيم جلَّ شأنه، كما ذكر النَّبيُّ ﷺ في الحديث: «**أَطَّتِ السَّماء، وحقَّ لها أنْ تَئِطَّ؛ ما فيها موْضِعُ أربع أصابع إلا عليه مَلَكٌ ساجد**»(١).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٤٩-٥٠].

فتخبر الآيات عن عظَمة الرَّبِّ وجلاله وكبريائه؛ فقد خضع كلُّ شيء لعظَمته، وذلَّت المخلوقاتُ لسلطانه. وها هم ملائكة الرَّحمن بين سجود وتسبيح وخوف، يخافون مخالفة أمره أو التقصير في حقِّه.

فوصفوا بالسجود والخضوع لله، «وفي هذا قطعٌ لكلِّ حجَّةٍ للإنسان ألا يكون في الساجدين لله، فإذا عدَّ نفْسه من عالَم الأرض، فهذه دوابُّ الله كلُّها تَسجُد لله، فلْيسجُد معها. وإذا كان يرى أنه فوق هذه الدَّوابِّ، فهذه مخلوقات السَّماء، وهذه الملائكة أشرف مخلوقاتها وأكرمها عند الله، قد سجدت لله في ولاء وخشوع، فليسجد لله كما سجدت الملائكة، أو كما سجدت الدَّوابُّ»(٢)! ففي الآية حثٌّ وحضٌّ للمؤمن على التَّشبُّه بالملائكة، ومدحٌ لمن فعل ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٥٥٥)، وقال الأرناؤوط: «حَسَنٌ لغيره، وهذا إسناد منقطع».

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٣٠٥).

ثم وصفوا بالخوف منه جل وعلا، فهم علىٰ عُلُوِّهم وكونهم فوق غيرهم من الخلائق، إلا إنَّهم: «يخافون ربهم وهم من فوق ما في الأرض مِن دابَّة، ومع ذلك يخافون؛ فلَأَنْ يخاف مَن دُونهم أَوْلَىٰ»[(١)]. و«هذه المخافة هي مخافة الإجلال، وكلَّما كانت معرفة الله تعالىٰ أتمَّ كان الخوفُ منه أعظم»[(٢)].

أمَّا اختيار الخوف في صدوره منهم فلأنَّ الملائكة -حسَب ظنِّنا- خلقٌ أقوياء، من مخلوقات الله ﷻ، فذِكْرُ الخوف معهم يدلُّ علىٰ أنهم، مع كونهم من أقوىٰ المخلوقات، إلا أنهم ضعفاء أمام قوَّة الله ﷻ، فذكر ﷻ ضَعْفَهم بالنسبة إلىٰ قوَّته، وأنَّه فوقهم ولو كانوا ذَوِي قوَّة، والله تعالىٰ أعلم. أنّهم مؤدُّون لحقِّه جَلَّوَعَلَا عليهم؛ من التَّعظيم والإجلال. ولم تَحمِلْهم معرفتُهم ببِرِّه وجُودِه وإحسانه علىٰ التكاسُل والتقصير في حقِّه، ولم تَحمِلهم طاعتهم علىٰ الإعجاب بها، بل أطاعوه مُعظِّمين خائفين، عالمين بما له من العظَمة.

ومن تعظيم الملائكة لربِّهم ما ورد في وصف حالهم عند سماع الوحي، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

۞ المعنىٰ الإجماليُّ للآية:

في الآية جانِبَا تعظيم؛ الأوَّلُ منها في الشَّفاعة، والثَّاني في الوحي.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي: لعظَمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحدٌ أنْ يَشفَع عنده تعالىٰ في شيء، إلا بعد إذْنه له في الشفاعة.

أمَّا قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾: «هذا أيضًا مقامٌ رفيعٌ في العظَمة، وهو أنَّه تعالىٰ إذا تكلَّم بالوحي، سمع أهلُ السَّموات كلامه، أُرْعِدُوا من الهَيْبة حتَّىٰ يلحقهم مِثْلُ الغَشْي»[(٣)].

ويشرح الآيةَ أحاديثُ وردتْ في صفة تلقِّي الملائكة الوحي، وأن من يتلقَّىٰ من الملائكة الوحيَ يَسأل الذي يُبلغه إليه بمثل هذا الكلام، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في (صحيح

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ١١٣).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٧)، وفتح القدير (٣/ ٢٣٨).
(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٥١٤).

البخاري) وغيره: أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «**إذا قضىٰ اللهُ الأمر في السَّماء، ضَربتِ الملائكةُ بأجنحتها خُضْعانًا لقوله، كأنَّه سلسلة علىٰ صَفوان، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: للذي قال: الحقُّ، وهو العليُّ الكبير**»[(١)].

۞ هدايات الآية:

١- معنىٰ فُزّع ودلالته:

التَّفزيع: إزالةُ الفزَع، والفزعُ: «انقباضٌ ونِفَارٌ يعتري الإنسانَ من الشَّيء المُخيف، وهو من جنس الجَزَع، ولا يقال: فزِعتُ من الله، كما يقال: خِفْتُ منه. و﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: أُزيل عنها الفزع، ويقال فزِع إليه، إذا استغاث به عند الفزَع، وفزِع له أغاثه»[(٢)]. والمراد إزالةُ الخوف والفزعِ عن قلوبهم.

٢- بناء الكلمة:

«﴿فُزِّعَ﴾ قرأه الجمهورُ بضمِّ الفاء وكسر الزَّاي مشدَّدة، وهو مضاعَف فزِع. وبُني للمجهول لتعظيم ذلك التَّفزيع بأنَّه صادرٌ من جانبِ عظيم، ففيه جانبُ الآذِن فيه، وجانب المُبلغ له وهو الملك»[(٣)].

٣- السَّبب في فزع الملائكة إذا سمعت الوحي:

أخبرت الآية عن خوف الملائكة، و«أنهم إذَا سمِعوا الوحي خرُّوا سُجَّدًا من مخافة الله»[(٤)]، وكذا «تعظيمًا وهَيْبَةً، وقيل: خوفًا أن تقُومَ الساعة»[(٥)]. فلعلَّهم يَفزَعون لأمرِ الله -جلَّ شأنه- حين يوحي به إليهم؛ خوفًا من التَّقصير في أمره، ولا يمنع فزعَهم من قيام الساعة، فهي ممَّا يُفزع منه.

٤- دلالة فزع الملائكة:

رهبة الملائكة وخوفهم دلالةٌ علىٰ أنهم خلقٌ من خلقه ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرًّا ولا نفعًا، فضلًا عن أن يكونوا شركاء أو شفعاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢٢).
(٢) المفردات في غريب القرآن (٣٧٩).
(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٩٠).
(٤) بحر العلوم (٣/ ٨٤).
(٥) المحرر الوجيز (٤/ ٤٨٣).

ومعنىٰ الآية أنَّ المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة، التي وصفْنا لكم عجْزها ونقْصها، كيف صُرفوا عن إخلاص العبادة للرَّبِّ العظيم الذي من عظَمته وجلاله أنَّ الملائكة الكِرام، والمقرَّبين من الخَلْق، يبلُغ بهم الخضوعَ والصَّعْقَ عند سماع كلامه هذا المبْلغ، ويُقرُّون كلُّهم لله، أنَّه لا يقول إلا الحقَّ. فما بالُ هؤلاء المشركين استكبروا عن عبادة مَن هذا شأنُه، وعظَمةُ مُلْكه وسلطانه. فتعالىٰ العليُّ الكبير عن شرك المشركين، وإفكهم وكذِبهم[١].

٥- توجههم بالسُّؤال:

﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ يتساءلون عن ذلك من شِدَّة الخَشْيَة؛ فإنَّهم إذا فُزِّع عن قلوبهم تساءلوا لمزيد التحقُّق بما استبشروا به، فيُجابون: إنَّه قال الحقَّ. «يخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتَّىٰ ينتهي الخبر إلىٰ أهل السَّماء الدُّنيا»[٢].

٦- وصفهم قول ربِّهم:

﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ أي: الثَّابت الذي لا يُمكِن أنْ يُبدَّل، بل يطابقه الواقعُ فلا يكون شيءٌ يُخالفه[٣]. فهو قولٌ صادر عن علْم، فلا يُعارَض ولا يُناقَض.

٧- وصف ربِّهم بالعليِّ الكبير:

لله ﷻ العُلُوُّ المطلَق في الذَّات والصِّفات، علا ﷻ ذاتًا وقَدْرًا وصِفةً، وهو الكبيرُ، لا كبيرَ علىٰ الحقيقة سِوَاه، وقد جاء الاسمان مقترنَيْن في مقام الحُكم والفصل بين الخصوم، كما في الخصومة بين الأزواج، والمناسبةُ بينهما ظاهرةٌ قويَّة؛ «ذلك أنه لا يتولَّىٰ الحُكمَ إلا عليٌّ: ليس فوقه أحدٌ يَرُدُّ حُكمَه، كبير: كلُّ شيء دونه؛ إذلالًا وخضوعًا، طَوْعًا وكَرْهًا. كما إنَّ النُّفوس لا تنقاد غايةَ الانقياد للحاكم، إلا مع العظَمة الزائدة والقِدَمِ في الرِّفْعة والمجد»[٤].

٨- أسرار اختيار اسم (الرَّبِّ):

لـمَّا كان المقامُ مقامَ خوفٍ وفزع ناسَبَ الإتيانُ بـ«صفة الإحسان؛ ليرجع إليهم رجاؤهم، فتسكُن لذلك قلوبهم»[٥].

---

(١) يُنظر تفسير السعدي (٦٧٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٥١٤).
(٣) نظم الدرر (٦/ ١٧٦).
(٤) يُنظر بلاغة المناسبة في اقتران أسماء الله الحسنىٰ (٤٤٣).
(٥) نظم الدرر (٦/ ١٧٦).

المطلب الثَّاني: تعظيم الجنِّ:

الجِنُّ خلقٌ لله عجيب، خلَقهم من نار، وأمرهم كالإنس بعبادته، فهم مكلَّفون مخيَّرون، لذا كان منهم المؤمنُ ومنهم الكافر، بل منهم الصَّالح أيضًا، ومنهم مَن دعا إلىٰ الله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٣١]. وفعلُهم هذا تعظيمٌ لربِّهم وباريهم، فقد عرَفوا قَدْرَه، وصرَفوا له ما يستحقُّ من العبادة والإجلال.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

۞ المعنىٰ الإجماليُّ للآية:

تقدَّمت هذه الآيةُ في الفصل الأول في مبحث ألفاظ تعظيم الرَّبِّ في القرآن الكريم، المطْلب الثَّالث: الثَّناءُ والتَّمجيد، وقد شُرحت هناك بالتَّفصيل، ولكنَّ الإشارة هنا إلىٰ مظاهر تعظيمهم لربِّهم، حينما استمعوا لكلام الله وهو يُتلىٰ، وتعجَّبوا منه غاية العجَب، ممَّا دعاهم إلىٰ الإيمان بربِّهم جلَّ شأنه.

۞ هدايات الآية:

١- تعظيم ربِّهم بالقول:

(تعالىٰ جدُّ ربِّنا) أي: «تعالت عظَمة ربنا وقدرته وسلطانه»[(١)].

وقرئ: ﴿جِدُّ ربِّنا، بالكسر﴾[(٢)]: «أي: صِدقُ ربوبيَّته، وحقُّ إلهيَّته عن اتِّخاذ الصاحبة والولد»[(٣)]. والجِنُّ ها هنا في تعظيمهم تخيَّروا لفظًا من أقوىٰ الألفاظ وأدلِّها علىٰ عُلُوِّ قدْر ربِّهم وعظيم شأنه؛ إذْ إنَّ لفظ التَّعالي دالٌ علىٰ القَدْرِ العالي الرَّفيع بأبلغ عبارة.

٢- تنزيهه -جَلَّ شأنُه- عن اتِّخاذ الصاحبة والولد:

أمَّا عن اختيارهم وتنزيههم للرَّبِّ -جَلَّ شأنُه- عن اتِّخاذ الصاحبة والولد علىٰ وجه الخصوص، ففيه لطيفةٌ. قال الطبري: «إنَّما عَنَوْا أنَّ حَظْوَتَه من الملك والسُّلطان والقُدرة والعظَمة عاليةٌ، فلا يكون له صاحبةٌ ولا ولد؛ لأنَّ الصَّاحبة إنما تكون للضعيف العاجز الذي تضطرُّه الشهوة الباعثة إلىٰ اتِّخاذها، وأنَّ الولد إنما يكون عن شهوةٍ أزعجتْه إلىٰ الوِقَاع الذي يَحدُث منه الولد، فقال

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٦٥٠-٦٥١).
(٢) حجة القراءات (ص: ٧٢٧)، والمحرر الوجيز (٥/ ٣٥٠).
(٣) تفسير الكشاف (٤/ ٦٢٣).

النَّفَرُ من الجِنِّ: علا مُلكُ ربِّنا وسلطانُه وقدرتُه وعظَمتُه أنْ يكون ضعيفًا ضَعْفَ خلْقه الذين تضطرُّهم الشهوةُ إلىٰ اتِّخاذ صاحبة، أو وِقَاع شيء يكون منه ولدٌ»[١].

واتِّخاذُ البشَر لهما للحاجَة والاستئناس والالتذاذ، والرَّبُّ جَلَّوَعَلَا غنيٌّ عن ذلك كلِّه. فجمعوا في تعظيمهم للرَّبِّ بين الثَّناء والتَّنزيه.

فدلَّ قولُهم علىٰ وحدانيَّته، وجمع بين تنزيهه عن الحاجة والضَّعف والافتقار، وإثبات القوَّة والعظَمة له سبحانه. لذا عدُّوه قولًا شَطَطًا ومُجاوِزًا للحَدِّ والصَّواب في وصف الرَّبِّ -جلَّ شأنه- فاستعظموه ونزَّهوا الرَّبَّ عنه. فمَن له هذا التَّعالي والجلال والغِنَىٰ المطلَق، وَجَبَ تنزيهُه عن كلِّ شائبةِ نقصٍ في حقِّه.

٣ـ أسرار اختيار اسم (الرَّبِّ):

اختيار اسم (الرَّبِّ) وإظهاره في هذا الموضع دون الإضمار؛ «للتصريح علىٰ الرُّبُوبيَّة؛ فإنَّ الرُّبُوبيَّة تقتضي أنْ تكُون عظَمتُه وشأنُه أعلىٰ وأرفع عن شأن المربوبين»[٢].

المطلب الثَّالث: تعظيم الجمادات:

الكون كلُّه عُلْوِيُّه وسُفْلِيُّه، صغيرُه وكبيرُه، إنسُه وجِنُّه وملائكته... مُعظِّمٌ لخالقه؛ فالرَّعدُ يسبِّح بحمده والملائكةُ من خِيفَته، وما مِن شيء إلا يسبِّح له. والشَّمس والقمر، والنَّجم والشَّجر، وكلُّ ما علىٰ الأرض في سجود له، بل ظلالُها كذلك في سجودٍ وخضوعٍ تامٍّ يليق بجلاله. وقد كان هذا مشهدًا حيًّا رآه الصَّحابةُ بأعيُنهم في تسبيح الحَصا والطَّعام بين يَدَيِ النَّبيِّ ﷺ، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «ولقد كنَّا نسمع تسبيحَ الطَّعام وهو يؤكل»[٣]. وها هو نبيُّ الله داودُ تسبِّح الجبالُ معه والطَّير، وتردِّد التَّسبيحَ في مشهدٍ مَهيب تتجاوب فيه الجماداتُ الصُّمُّ، وتَذِلُّ تعظيمًا لباريها -جلَّ في عُلاه- تقديسًا وتمجيدًا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق: ١-٢].

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٦٥٠ـ ٦٥١).

(٢) التفسير المظهري (٤٠٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٨٦).

۞ المعنىٰ الإجماليُّ للآية:

السَّماوات والأرض من مخلوقات الله العِظام، وعظَمتُها شاهدة علىٰ عظَمة خالقها.. مدَّها بلا أَمَدَ، ورفعها بلا عَمَدَ، وضرب بها المثلَ في عِظَم خلْقها، ومع عِظم خلقها وإحكام صُنعها إلا أنها تتضاءَل عند عظَمة خالقها، أطاعتْ وأذعنتْ لأمر ربِّها، وحُقَّ لها ذلك؛ فهي مخلوقةٌ مُسخَّرة تحت تصريف المالك المدبِّر - جلَّ شأنه - وإذَا أمرها يوم القيامة استجابت وانشقَّت وفُتحت فكانت أبوابًا.

۞ هدايات الآية:

١- المراد بالإذن:

(وأذنت لربِّها) «الأُذن بضم الهمزة: آلَةُ السَّمع في الإنسان، يقال: أَذِن له كما يقال: استمع له، أي: أصغىٰ إليه أُذنَه. وهو هنا مجازٌ مُرسَل في التأثُّر لأمر الله التكوينيِّ بأن تنشقَّ»[(١)].

«فكانت شديدة الاستماع والطَّواعية والانقياد علىٰ أتمِّ وجه، كمَن له أُذن واعيةٌ ونفْسٌ مطمئنَّة راضية»[(٢)]، وهي جماد!

٢- معنىٰ (حُقَّت) ودلالته:

«أي: وحُقَّ لها أنْ تطيع ربَّها»[(٣)]. وهي حقيقةٌ بالاستماع والانقياد؛ لكونها «مسخَّرة مدبَّرة تحت مُسخِّرٍ ملِكٍ عظيم، لا يُعصىٰ أمره، ولا يُخالَف حُكمه»[(٤)]، قهر كلَّ الأشياء، وذلَّت له كلُّ الوجوه، فكيف تخرُج عن سلطانه وقدرته، مهْما عظُمت! وحقَّ لها أنْ تنشقَّ؛ لشدَّة الهَوْل وخوف الله تعالىٰ[(٥)].

وربَّما أنَّ أصل الكلام: حقُّ الله تعالىٰ عليها بذلك، أي: حكم عليها بتَحَتُّم الانقياد علىٰ معنًىٰ أراده سبحانه منها، إرادةً لا نَقْضَ لها[(٦)]، فانقادت لأمره.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢١٩).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٦٧).
(٣) تفسير البغوي (٨/ ٣٧١)، وزاد المسير (٩/ ٦٣).
(٤) تفسير السعدي (ص: ٩١٧).
(٥) تفسير البحر المحيط (٨/ ٣٣٤)، وروح المعاني (١٥/ ٢٨٧).
(٦) روح المعاني (١٥/ ٢٨٧).

٣ـ أسرار اختيار اسم (الرَّبِّ):

كان التَّعبير بـ(ربها) دون غيره من أسماء الله وطرق تعريفه؛ لـمَا يُؤذِن به وصفُ الرَّبِّ من المـُلك والتَّدبير[١]. والمعنىٰ أنَّ تأثُّرَها وانشقاقها "عن تأثيره، لا بنفْسها، ففعلت فيه كلِّه فعلَ السَّميع المجيب[٢].

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢١٩).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٦٨).

الخاتمة

الحمد لله وكفىٰ، والصّلاة والسلام علىٰ عباده الذين اصطفىٰ،،

أما بعد؛ فإنَ المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد بين هداياته مشاهد من التعظيم ظاهرة، تمثلت فيمن عرف الله حق معرفته، وقدره حق قدره، ولا يملك العبد حينها إلا أن يكون في زُمرة الكوكبة المُعظِمة، ينافسها التعظيم. ولا شك أن العناية بذلك بحثًا وعملًا كفيلٌ بترقي العبد في مراتب الإيمان؛ فكلما ازداد معرفة بخالقه، ازداد له محبةً وتعظيما.

بل إنَ مجرد البحث في هذا الموضوع الجليل يملأ قلب العبد مهابة وإجلالا، بله مافوقه! وما هذا المؤتمر وأمثاله إلا خطوة لله مباركة يُرجىٰ نفعها وأثرها علىٰ الأمة أفرادًا وجماعات، لا سيما إذا سعىٰ كلٌ بما يستطيع في إبراز ونشر مفهوم تعظيم الله وجعله واقعًا مُعاشًا في نفسه ومن حوله.

وختامًا لا أدعي أنني بلغت الكمال في بحثي، ولكن حسبي أنني بذلت جهدي، فإن أصبت فمن الله ـ وله الحمد أولا وآخرا ـ وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان واستغفر الله وأتوب إليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،

المصادر والمراجع

١- أسرار البيان في التعبير القرآني، المؤلف: د. فاضل صالح السامرائي، الناشر: دار الفكر، عمان ـ الأردن ـ ١٤٢٩هـ

٢- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، الناشر: دار الفكر ـ بيروت - الطبعة: ١٤١٥هـ.

٣- البرهان في علوم القرآن، المؤلف: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٧٦هـ، الناشر: دار إحياء الكتب العربية.

٤- بلاغة المناسبة في اقتران أسماء الله الحسنىٰ، إعداد: د. حسين إبراهيم حسين إمام، رسالة جامعية مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد، جامعة الأزهر - كلية اللغة العربية بأسيوط- ١٤٣٠هـ

٥- التحرير والتنوير، المؤلف: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار النشر: دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧م.

٦- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، المؤلف: محمد بن محمد العمادي أبو السعود، الناشر: دار المصحف -مكتبة ومطبعة عبدالرحمن محمد - القاهرة.

٧- تفسير البحر المحيط، المؤلف: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، الناشر: دار الفكر - بيروت - سنة الطبع: ١٤٢٠ هـ، تحقيق: صدقي محمد جميل.

٨- تفسير البيضاوىٰ = أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصرالدين أبو سعيد عبدالله بن عمر البيضاوي، المحقق: محمد المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت- الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٨هـ.

٩- التفسير المظهري، المؤلف: محمد ثناء الله العثماني المظهري، الناشر: مكتبة رشديه - باكستان - دار إحياء التراث العربي، ببيروت، سنة الطبع: ١٤١٢ هـ، تحقيق: غلام نبي.

١٠- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: د. محمد سيد طنطاوي (شيخ الأزهر)، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ١٩٧٨ م.

١١- تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل، المؤلف: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار النشر: دار النفائس - بيروت ٢٠٠٥م، تحقيق الشيخ: مروان محمد الشعار.

١٢- الجامع الصحيح المسمىٰ صحيح مسلم، المؤلف: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الناشر: دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة - بيروت.
١٣- الجامع لأحكام القرآن، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري شمس الدين القرطبي، تحقيق: سمير البخاري، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة: ١٤٢٣ هـ
١٤- حجة القراءات، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة، الناشر: مؤسسة الرسالة -بيروت-، الطبعة الثانية، ١٤٠٢-١٩٨٢م، تحقيق: سعيد الأفغاني.
١٥- ديوان الاعشىٰ، المؤلف: ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بَصير، المعروف بأعشىٰ قيس، المحقق: محمد حسين.
١٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود ابن عبد الله الآلوسي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - سنة الطبع: ١٤١٥ هـ، تحقيق: علىٰ عطية.
١٧- صحيح البخاري = الجامع الصحيح المختصر، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الناشر: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت -، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ، تحقيق: د. مصطفىٰ ديب البغا.
١٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت - ١٣٧٩ .
١٩- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المؤلف: العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت - سنة الطبع: ١٤٠٧ هـ
٢٠- مجموع الفتاوىٰ، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني، المحقق: أنور الباز -عامر الجزار، الناشر: دار الوفاء، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ هـ.
٢١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة الطبع: ١٤٢٢ هـ. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي.
٢٢- المفردات في غريب القرآن، المؤلف: الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، الناشر: دار العلم الدار الشامية، دمشق، سنة الطبع: ١٤١٢ هـ. تحقيق: صفوان عدنان.

٢٣- معالم التنزيل، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المحقق: محمد عبدالله النمر وآخرون، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة ١٤١٧ هـ.
٢٤- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، المؤلف: برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥ هـ، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي.